جهود العلج علي باشا الجزائر في عثمنة تونس على ضوء مهمة دفتري

The efforts of Al-Aldj Ali Pasha of Algeria in the Ottoman Empire in Tunisia the light of Daftary's mission

سحابات زهيرة ♦

جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس، zahirasehabat@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/07/30 تاريخ القبول: 2023/01/24 تاريخ النشر: 2023/01/31

الملخص باللغة العربية:

يدور موضوع الدراسة حول **جهود العلج علي باشا الجزائر في عثمنة تونس على ضوء مهمة دفتري** حيث كان لإيالة الجزائر مع بداية القرن16م دور هام وبارز من خلال مشاركتها في حل القضايا العثمانية المتوسطية ومن بينها مسألة تحرير تونس التي أخذت حيزا كبيرا من إهتمام الباب العالي الذي سارع في تكثيف مراسلاته وإتصالاته مع باشاوات الجزائر وخاصة العلج علي بعد تقليده لحكم الجزائر سنة 1568م، والذي بدأ أولى اهتمامه بقضية تحرير تونس مكملا بذلك ما بدأ به خير الدين باشا، حيث جهز العدة والعتاد مع إشراكه للقبائل الجزائرية منها قبائل كوكو من أجل تحقيق الهدف المنشود مستغلا بذلك خبراته البحرية، ولهذا نراه يقوم بتحرير الدواخل التونسية الواحدة تلو الأخرى ويلحقها إداريا بإيالة الجزائر بطلب من الباب العالي، إلى غاية تحريره حلق الوادي والتي بدونها يبقى تحرير تونس معلقا والذي تم نهائيا في 13 سبتمبر 1574م، وهكذا دمرت أحلام الاسبان نهائيا بالمنطقة وألحقت تونس بالمجال العثماني.

الكلمات المفتاحية: العلج علي؛ الجزائر؛ تونس؛ الإسبان؛ الدولة العثمانية.

Abstract: The subject of the study concerns The efforts of Al-Aldj Ali Pasha of Algeria in the Ottoman Empire in Tunisia the light of Daftary's mission Where, at the beginning of the 16th century AD, the Regency of Algeria had an important and prominent role through its participation in solving the Ottoman Mediterranean issues, including the issue among them the liberation of Tunisia. Indeed, the latter took a large part of the attention of the Othman's authorities, who hastened to intensify their correspondence and

♦ المؤلف المرسل

contacts with the pashas of Algeria, especially Al-Aldj Ali, after his imitation of the rule of Algeria in 1568 AD who started his first interest in the issue of the liberation of Tunisia, complementing what Khair El-Din Pasha started with, where he prepared the equipment with his involvement of the Algerian tribes, including the Coco tribes, in order to achieve the desired goal, taking advantage of his naval expertise that friends and enemies testified. For this we see him liberating the interiors of Tunisia one after the other, he attaches it administratively to the province of Algeria at the request of the Othman's authorities, until the liberation of Halk El Wadi, without which the liberation of Tunisia would remain suspended. This was finally completed on 13September 1574 AD, and thus the dreams of the Spaniards were completely destroyed in the region and Tunisia was annexed to the Ottoman domain.

Keywords: Al-Aldj Ali; Algeria; Tunis; Spaniards; Ottoman empire .

مقدمة:

لم تكن تونس مع نهاية القرن15م وبداية القرن16 م بمنأى من التحولات الحاصلة في الحوض الغربي للمتوسط، بداية من الصراع على السلطة على العرش الحفصي وتدهور حالتها العامة، اضافة إلى تخوفهم من النفوذ العثماني خاصة بعد ضم الجزائر إلى مجالها، ولهذا فسر بعضهم ضرورة التحالف مع الإسبان من أجل صد هذا المد الذي اعتبروه خطيرا على عرشهم، وعليه بقيت تونس لفترة معينة تتأرجح بين الحفصيين والإسبانيين، ولكن لرجال وأعيان المنطقة رأي آخر حيث رأوا من الضرورة الإستنجاد بالعثمانيين لتحرير بلادهم من الهيمنة الإسبانية وخاصة أن البلاط الحفصي يعرف أزمات حقيقية تنبأ بنهاية ملكهم على تونس، وعليه لم يكن أمام باشاوات الجزائر إلا التحرك وفق ذلك مع موافقة الباب العالي طبعا من أجل تحرير المنطقة من الإسبان من جهة ومن أجل حماية حدودها من جهة أخرى، ولهذا بدأت عمليات التحرير في عهد خير الدين باشا وانتهت مع عهد الباشا العلج علي الذي سارع بتكثيف مراسلاته مع الباب العالي من أجل تخليص المنطقة من الإسبان ووفر كل جهوده وخبراته البحرية من اجل تحقيق التحرير المأمول، وعليه نطرح الإشكال التالي: ما هو الدور الذي لعبه العلج علي باشا الجزائر في تحرير تونس من الهيمنة الإسبانية، وفيما تمثلت جهوده ؟

ما هو مهم في هذا الموضوع هو تلك المعلومات التاريخية القيمة الموجودة في الوثائق الأرشيفية المستخدمة في هذا المقال، والتي استعنا بها من مركز الأرشيف الوطني الجزائري الموجود بالجزائر العاصمة وبالضبط في بئر خادم، والذي بدوره يحتوي على كم هائل من الوثائق والتي تنتظر رفع الغبار عليها من طرف الباحثين وبالأخص المهتمين بتاريخ الجزائر العثماني وهذا لما تحتويه هذه المادة المصدرية من معلومات مهمة، ولهذا حاولنا قدر الإمكان الحصول على هذه الوثائق من أجل الإستفادة منها وإستخراج العديد من المعطيات التاريخية بعيدا عن ما كتبه المؤرخين في هذا الجانب وخصوصا فيما يخص تاريخ البحرية الجزائرية العثمانية والمراسلات التي تمت بين حكام الجزائر والباب العالي في تلك الفترة، وإن كانت الوثائق المستعملة في هذا المقال ما بين سنتي 1571-1574م وهي الفترة التي كثفت فيها المراسلات بين الباب العالي وحاكم الجزائر العلج علي آنذاك من أجل تحرير تونس، ومحاولتنا هذه تهدف انطلاقا من قراءة استقرائية لهذه الوثائق التي بحوزتنا مبرزين من خلالها دور الجزائر والعلج علي باشا في تحرير تونس من الهيمنة الإسبانية.

1- أ زمة البلاط الحفصي مع بداية القرن السادس عشر ميلادي:

كان للتحولات الكبرى التي عرفها القرن السادس عشري ميلادي الدور البالغ في الانحلال الذي أصاب التركيبة الحفصية فقد نتجت صراعات عسكرية وسياسية شارك في إضرام نارها قوى عديدة داخلية وخارجية، حيث كان الصراع قائما بين الأتراك والإسبان والقوى السياسية والعسكرية المحلية التي كانت متواجدة على الساحة آنذاك [1]، فالدولة الحفصية كانت تعاني يومئذ من الانحطاط والتخلف السياسي وهذا بعد أن تولى أمرها السلطان الحسن بن محمد الذي خلف أباه محمد بن الحسن على العرش، ولك أن تتصور انهيار الدولة تحت هؤلاء الملوك وهي بين قوتين وهيبتين قوة الإسبان وقوة العثمانيين [2].

ومهما يكن من الأسباب فالنتيجة واحدة حكم متلاشي وسكان غير راضين على ملكهم الحفصي [3]، لما يتميز به هذا الرجل من طباع سيئة، حيث لم يسلم منه حتى

1- عبد الحميد هنية، تونس العثمانية بناء الدولة والمجال، منشورات أوتار تبر زمان، تونس، 2016، ص77.

2-أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و اسبانيا 1492م- 1792م، دار البعث، د.س، ص ص 229، 230.

3- Fray Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger, trad. : h- d . de Grammont, libraire éditeur, Alger, 1881, p46.

إخوته ماعدا واحدا فيهم الذي استطاع الفرار وهو الرشيد الذي فر إلى الجزائر ورحب به خير الدين الذي كان مقيما بمدينة الجزائر، والذي اقتاده معه إلى اسطنبول فيما بعد، واقترح على السلطان العثماني سليمان القانوني[4]بمعية رشيد الحفصي بأخذ تونس من الإسبان[5]، ومن هنا أصبحت الفرصة مواتية لأتراك الجزائر للسيطرة عليها، ولم يتردد خير الدين في تنظيم حملة عسكرية على تونس بحيث تحمسوا للأمر خاصة بعد تدخلهم المباشر على الجزائر وضمها للعثمانيين، وهذا ما جعل الحسن الحفصي يتحالف مع الإسبان تخوفا من ضياع حكمه وعلى عرشه في السلطنة الحفصية، وإن كان مقدرا على الدول مهما عمرت وطالت فنهايتها الزوال ولكن التحالف مع الصليبيين هو أكبر خطأ اقترفه الحفصيين.

2- دور إيالة الجزائر في إلحاق تونس بالدولة العثمانية:

تظافرت الأسباب التي تدعو إلى ضرورة توجيه حملة عثمانية نحو تونس من أجل عثمنة الفضاء المغاربي، وعلى هذا الأساس سعى السلاطين العثمانيين وحكام الجزائر الذين عانوا هم أيضا من مؤامرات السلطان الحفصي إلى عثمنة هذه المنطقة لتوسيع ممالك العثمانيين من جهة، ولحماية إيالتها[6] في شمال أفريقيا من المد الاسباني من جهة أخرى، ومن الضروري الولوج إلى دور وجهود البيلرباي خير الدين حاكم إيالة الجزائر في تحرير تونس وهي الجهود التي سبقت جهود العلج علي والتي بدورها مهدت له الطريق فيما بعد لتحرير المنطقة في أقرب فرصة ممكنة، والتي سنتطرق لها في الآتي:

4- سليمان القانوني ولد في6 صفر 900ه، وهو حفيد بيازيد الثاني ووالده السلطان سليم، قضى طفولته في طرابزون بجوار والده الدي اعتلى العرش من بعده بعد وفاته سنة 926ه الموالفق ل1520م، لهد عدة إنجازات منها فتح رودس وغيرها كما عرف عهده العديد من حركات التمرد في منطقة الأناضول. ينظر: فريدون أمجان، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، تر: جمال فاروق، أحمد كمال، ط2، دار النيل للطباعة والنشر، 2015، ص —ص 14-102.

5- Louis Piesse, Itinéraire de L'Algérie de la Tunisie et de Tanger, Librairie Hachette, Paris, 1882, p483.

6- الإيالة مصطلح عثماني يطلق على أكبر التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية، فقد كانت الدولة مقسمة إداريا إلى إيالات والإيالات إلى سناجق والسناجق الى أقضية والأقضية إلى نواح والنواحي إلى قرى ولقد أشرف على الإيالات في الدولة العثمانية أمير الأمراء ثم الوزراء بعد القرن 16م حيث كانوا يمثلون السلطان ويجمعون بين الحكم الإداري والعسكري بالإيالة، ولهم النفوذ المطلق ما عدا الحالات القضائية. سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات الملك الفهد الوطنية، الرياض، د.س، ص45.

1.2- جهود الباشا خير الدين بربروس:

إن الوجود العثماني بالجزائر وانضواءها تحته قد يسهل وبلا شك فيما بعد تشكيل وحدة عثمانية في الفضاء المغاربي، كما سيسمح بتبني أنظمة إدارية جديدة لم يعرفها هذا الفضاء سابقا، ولهذا طلب السلطان العثماني من خير الدين باشا من رفع التحدي وضم تونس إلى الدولة العثمانية في أسرع وقت.

يذكر أنه في سنة 1531م أرسلت بعثة دبلوماسية تونسية إلى السلطان سليمان القانوني تشرح له مدى ضعف الوضعية العسكرية والسياسية للحفصيين أمام جار أثبت قوة تمركزه على الصعيد العسكري، ضف إلى ذلك استحالة التنبؤ في تلك الفترة بخططه وتحركه مستقبلا وتوسيع سلطته ونفوذه في مملكة الحفصيين المنهارة، وإن كان الهدف الجوهري من إرسال هذه البعثة الدبلوماسية التونسية إلى إسطنبول سنة 1531م المسعى منها كسب موافقة السلطة الدينية والسياسية للدولة العثمانية على هدنة مع إيالة الجزائر والتي بينت الأحداث أن لها طموحات ترابية في مملكة الحفصيين[7].

وعليه استلم خير الدين باشا قيادة الأسطول العثماني في سنة 1533م وابتدأ أولى أعماله البارزة في التاريخ وهو الإقدام على ضم تونس إلى السيادة العثمانية في سنة941هـ- 1534م تمهيد لبسط سيادتها على شمال افريقيا ككل[8].

خرج أسطول خير الدين باشا في 18 أوت 1534م يحمل على متنه حوالي 1800 انكشاري وحوالي 6500رجل من أصول مختلفة وحوالي 600من الأعلاج، توقف الأسطول عدة مرات في كلابريا (جنوب إيطاليا)لجمع الغنائم والعبيد والماء والخشب، ولما بلغ مدينة عنابة وجد في انتظاره إمدادات جاء بها حسن أغا، وسار الجيش التركي برا نحو بنزرت وبحرا نحو حلق الوادي التي اختارها خير الدين من أجل حماية جيشه[9]، في حين خرج الحسن الحفصي على رأس 4000فارس عربي[10] حيث كان خير الدين على علم بأن السلطان الحفصي مولاي حسن كان يتفاوض مع شارل الخامس ملك إسبانيا من أجل

7- عبد الجليل التميمي، دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن السادس عشر، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2009، ص101.

8- عمار بن خروف، العلاقات بين الجزائر والمغرب 923هـ- 1069هـ - 1518م- 1659م، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، جامعة دمشق، 1983.، ص 32.

9- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514م - 1830م، ط2، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.س، ص62.

10-Elie De LA Primoudaie, Documents inédits sur l'histoire De l'occupation Espagnole en Afrique (1506- 1574), R.A, N° 19, Alger, 1875, p346.

التدخل وتقديم المساعدة له[11]، حيث استطاع خير الدين هزيمتهم و فتح تونس وطرد الاسبان منها، وأصبحت تونس بالتالي تتبع الجزائر مباشرة أي إلى بايلربايات الجزائر ومن ثم إلى الباب العالي وكل هذا سنة 1534م وما يؤكد صدق مخاوف السلطان الحفصي يومئذ من جاره العثماني بالجزائر [12].

عمل المولاي حسن بنصيحة أحد أعلاجه [13]الذي طلب منه ضرورة الاستعجال بالاستنجاد بشارل الخامس لاستعادة عرشه [14]، وحتى استيلاء خير الدين على تونس لم يرضي الاسبان ولا الدويلات الايطالية آنذاك، وما زاد تصميمه وعزمه هو الاستعطاف والإغراء الذي شمل الخطاب المبعوث من طرف الملك التونسي له الذي وعده بتبعية تونس لهم في حال القضاء على الحكم التركي في تونس[15].

ففي يوم 31ماي 1535م انطلق الأسطول الاسباني والمتكون من450قطعة بحرية تحمل30ألف رجل من برشلونة تحت قيادة شارل الخامس الذي بلغ خليج تونس يوم15جوان على الرغم من المقاومة العنيفة إلا أنه استطاع الاستيلاء على حلق الوادي، ما اضطر خير الدين إلى الانسحاب[16]، وعلى إثرها حقق شارل الخامس انتصارا، حيث أعطى الضوء الأخضر لجنوده بنهب المدينة عقابا لسكانها الذين لم يحسنوا استقبال المولاي حسن بحفاوة، وعلى إثر هذا الانتصار وقع مولاي حسن معاهدة مع شارل الخامس، وإن كانت هذه المعاهدة قد وضعت مولاي حسن في أدنى مراتب الذل والإهانة.[17].

نجحت حملة شارل الخامس على تونس وأخذت مستوى كبير من الحيز الإعلامي وصل صداها لجل الدول الأوربية، فهي تؤكد على مسيرة الصراع الحضاري بين ضفتي المتوسط إسلامي مسيحي من جهة وصراع بين الشرعية واللاشرعية حيث الشرع هو تنحية الحفصي من ملك تونس وهو حقه واللاشرعية يمثلها خيرالدين المغتصب للحكم وهذا يعد

11- Fray Diego de Haedo, op.cit, p49.

12- Henri Mager, Atlas D'Algérie et Tunisie, Ernest Flammarion Editeur, 1901, p82.

13- وهو من أصل جنوي، صديق حميم لحسن الحفصي اسمه إكسيما أو خيماXimea. ينظر: شافعي درويش، الحملة الاسبانية على تونس سنة 1535م، مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية، ع30، سبتمبر2017، ص5.

14- صالح عباد، المرجع السابق، ص، 62.

15- شافعي درويش، المرجع السابق، ص5.

16- صالح عباد، المرجع السابق، ص 62.

17- نفسه، ص ص 62، 63.

باطلا [18]، أما مصير خير الدين ومع هزيمته أمام شارل الخامس سنة 1535م غادر الجزائر ثم راح للأستانة من أجل أن يتولى قيادة الأسطول العثماني[19].

2.2- جهود الباشا العلج[20]علي[21] 1568م- 1574م:

إن التمركز العسكري العثماني في هذه الفضاءات الثلاث قد أثار خلال سنتي 1559-1560م غضب كل أوربا المسيحية التي هبت تدفعها الحمية الدينية الكاثوليكية لتخطط لرد الهجوم العثماني ومكنها ذلك من الإستيلاء على جزيرة جربة سنة1560م، وهذا ما كان يتوقعه الباب العالي تماما [22]

وقبل الولوج إلى دور العلج علي في تحرير تونس من الهيمنة الإسبانية لابد من التطرق تفاصل صغيرة في حياة البايلرباي والذي كان ملاحا في نابولي قبل أن يتم أسره من طرف إحدى الحملات التي نظمها خير الدين بربروس بين سنوات1524-1528م من قبل السفن الجزائرية في السواحل الإيطالية ولقد عمل جذافا لمدة أربع عشر سنة كاملة، ثم عمل بعدها مساعدا قبل ان يستقل بسفينته الخاصة وينظم بذلك إلى درغوث رايس وبالتالي أصبح من أهم القادة العسكريين المساعدين لحسن بن خير الدين بربروس الذي مكنه من مناصب هامة في إيالات الدولة العثمانية.

كانت له عدة مساهمات في البحرية منذ انضمامه إلى درغوث رايس في جربة التونسية ومساعدته له في مختلف الهجمات التي كانت تشن على السواحل الإيطالية والإسبانية ابتداءا من تاريخ 1547م، ولقد تميزت حياته العسكرية بالعديد من المحطات الهامة والتي جعلته يتقلد منصب هاما وهو تعيينه سنة 1565 حاكما على طرابلس الغرب ثم بايلربايا على الجزائر سنة 1568م [23]

18- حسام الدين شاشية، "مراجعة كتاب تونس 1535م أصوات من حملة أوربية"، الكراسات التونسية، ع 218 -219، تونس، 2014، ص ص92، 93.

19- Defontin Maxange, Alger avant La conquête - Eulg Ali- , A.Pedone Editeur, Paris, 1930,p48.

20- إسم يطلق على المسيحي الذي يعتنق الإسلام.

21- علج علي أصله من كلابريا أسر وعمره عشرون سنة، لقب بالفرطاس، اعتنق الاسلام وعمل بحارا ثم انظم إلى درغوث في طرابلس، من أهم إنجازاته مشاركته في حرب مالطة وليبانت ومساندته لمسلمي الأندلس وتحريره لتونس، ولقد عين بايلربايا للجزائر عام 1568م.ينظر: صالح عباد، المرجع السابق، ص 90.

22 عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص103.

23تركي عباس، إضاءات حول شخصية بيلرباي الجزائر قليج علي 1568-1587، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، مج02، ع04 ، جويلية2020، ص ص109، 108.

لم يكن أمام العلج علي بايلرباي الجزائر عام1568م إلا إعادة الكرة ومحاولة تحرير تونس مجددا من الهيمنة الإسبانية، مستغلا بذلك الأوضاع المتردية في تونس على عهد السلطان حميدة بن الحسن الحفصي والدعوة التي تلقاها آنذاك العلج من بعض الناقمين على الوضع من أعيان تونس ورجالاتها ومنهم الطيب الخضار، وانشغال الإسبان بقضية الأندلسيين في جانفي 1569م[24]، وراح يحمل على عاتقه قضية تحرير تونس نهائيا منها.

وانطلاقا من هذه المعطيات أعطي الضوء الاخضر لقلج علي للقيام بحملته على تونس في شهر أكتوبر 1569م[25] وكانت معه قوة تتألف من خمسة ألاف رجل، وفي طريق إليها انظمت عدة قوات من قسنطينة وتونس وانضمت على إثره قوات أخرى من المتطوعين من قبائل عمراوة وقرفة وسويد قدرت بنحو سبعة(7)ألاف رجل[26] وهذه القوة استطاع العلج علي بها من تحرير تونس وتحقيق الإنتصار على السلطان الحفصي، وفي هاته الأثناء أرسل العلج علي في طلب الأسطول العثماني من أجل القضاء على الحصن الإسباني القوي نهائيا في حلق الوادي إذ بدون القضاء على هذا الحصن تبقى تونس معرضة للخطر من طرف الإسبان في كل لحظة، أما السلطان العثماني فلقد كان بحاجة إلى الأسطول لفتح قبرص، فلم يجبه هذا الأخير بطلبه وعاد إلى الجزائر تاركا حلق الوادي المحتل على حاله[27]، وعلى هذا الأساس ربطت تونس مع بعض المناطق الداخلية إداريا بالجزائر ما عدا حلق الوادي مع سنة 1570م- 978هـ وهذا بعدما كلف رمضان باشا بحمايتها[28].

ومن هذا المنطلق شجعت الجزائر على ممارسة نفوذها على تونس خاصة بعد الإلحاق الجزئي، حيث أصبحت تابعة لها وتمارس نفوذها عليها، ولكن الامر لم يمر مرار الكرام على طرابلس الغرب الذي راح هو الآخر يطالب بضم بعض المناطق التونسية إلى أراضيها، وكان هذا على إثر إرسال أمير أمراء طرابلس في هذا الشأن يتضرع فيه إلى السلطان العثماني بضرورة إلحاقهم بها، مدعيا أن هذه النواحي كانت تابعة لها، إلا أن رد السلطان العثماني تجاهل هذا الطلب وأمرهم بالتشاور مع العلج علي فيما يخص شأن تونس، وأكد على ضرورة إعلامه بما يجري في الجهة الغربية للدولة العثمانية، وهذا ما

24- عمار بن خروف، المرجع السابق، ص 50.

25- عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص104.

26- ابن أبي الدينار الرعيني القيرواني، المؤنس في تاريخ افريقيا وتونس، ط1، مطبعة دولة تونس، تونس، 1869، ص 163.

27- عمار بن خروف، المرجع السابق، ص 50.

28- عزيز سامح ألتر، الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، ط1، دار النهضة المغربية للطباعة والنشر ، بيروت، 1989، ص 238.

تؤكده لنا الرسالة المؤرخة في 17محرم 979هـ/1571م والتي تضمن محتواها ما يلي: «**جاء بنية إعلام الباب العالي[29]بكل أخبار العدو وماهي الإستعدادات بشأن الهجوم على أسطول وجزر الكفار، كما تم تفويض هذا الأخير بتسيير أمور الأسطول الهمايوني وتدبير شؤونه وترتيبه ومن جهة أخرى استفسار ومناقشة مع علي أمراء الجزائر الغرب الذي أعرب عنه جعفر باشا أمير طرابلس الغرب حول وجوب فصل كل القيروان والمنستير وسوسة عن تونس والحاقهم بطرابلس الغرب وعليكم الأخذ برأي علي بايلرباي الجزائر بشأن تونس وماصلتها بطرابلس الغرب [30]**».

وفي نفس هذا السياق، راسل السلطان العثماني بايلرباي الجزائر وطلب منه إلحاق باقي المناطق إلى المحمية ومنها القيروان التي شدد في أمرها السلطان العثماني[31]، لأن الوضع في تونس بقي متوترا لحد كبير وأضحى وضعها مقلقا.

هذه الأوضاع الجديدة جعلت طرابلس الغرب تسعى جاهدة لضم المناطق الآنفة الذكر، وهذا ما أزعج أعيان تونس الذين راسلوا السلطان العثماني يخبروه فيه على عدم رضاهم إلى الانضمام لطرابلس الغرب بسبب المعاملة السيئة وأنهم يفضلون تبعيتهم للجزائر عليها وهذا ما تؤكده الرسالة المؤرخة في 18محرم 979- 1571م حيث تضمنت ما يلي: «**وعليه طالب أعيان وعلماء تونس ومن طرابلس أيضا بعدم رضاهم بانضمامهم إلى تلك النواحي [يقصد طرابلس الغرب] وأنهم يفضلون الانضمام إلى الجزائر لما يلقوه من حسن معاملة وحتى أن بعض رجالكم ويقصد طرابلسيين بإلحاق الضرر والتعدي عليهم، وعليه أمرنا بالإبقاء على تلك المناطق أن تتبع الإيالة الجزائرية ...[32]**» ويؤكد فيها أيضا بصريح العبارة رغبتهم في أفضلية تبعية تونس للجزائر، وعلى هذا الأساس ألحقت المناطق الآنفة الذكر إلى إيالة الجزائر.

أمام التحديات والنجاحات التي يحققها القلج علي في تونس لم يكن من السهل تقبلها من طرف الإسبان ولهذا نرى السلطان العثماني يحذر ولاة إيالاته من الخطر الإسباني وأمرهم بأخذ الحيطة والحذر لأن هناك احتمالية مهاجمة الاسبان للسواحل الجزائرية والتونسية وخاصة وأن الأسطول الجزائري منظم للأسطول الهمايوني خلال هذه

29- مقر الصدر الأعظم الذي يضم مستشاره ورئيس الشورى ووزيري الداخلية. ينظر: محمود عامر، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، ع117- 118، 2012، ص366.

30- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 03 مهمة دفتري 12حكم518صحيفة249 تاريخ979هـ.

31- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 05 مهمة دفتري 10 حكم10صحيفة1 تاريخ 02- 01- 979هـ .

32- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة 05 مهمة دفتري14 حكم 1597صحيفة 1087 تاريخ 18- 01- 979هـ.

الفترة[33]، إلى جانب الأسطول التونسي أيضا، وهذا بطلب من السلطان العثماني والذي أمرهم بتجهيز العساكر الإسلامية بكامل أسلحتها للمشاركة فيها سنة1571م [34]، ولهذا شدد على ضرورة التعاون وأخذ الحيطة الشديدة من أجل الحفاظ على الإيالتين معا .

افي هذه الفترة انتهت ولاية رمضان باشا على تونس ولكن لقربه من الأهالي ومعاملتهم معاملة حسنة، أرسلوا عريضة للسلطان العثماني يطالبون فيها بإعادة تعيينه من جديدي على رأس الإيالة التونسية، وهذا ما توضحه الرسالة المؤرخة عام 1571م تقضي بإعادة تعيينه على إيالة تونس بعدما شهد له أعيان ولاية تونس ومنهم أبو الطيب الخضار إلى حسن استقامته ومعاشرته لأهالي الولاية الذين شهدوا له بالكفاءة، وعلى هذا الأساس تم تعيينه باشا على تونس وسوسة والقيروان والمنستير وجربة وبنزرت ... وتم على هذا الأساس إسناد إيالة تونس لرمضان باشا[35].

أما بخصوص العلج علي فلقد تحصل على ترقية عليا من طرف السلطان العثماني، ولا شك أن العلاقات الجيدة التي أقامها العلج علي باشا بالباب العالي والإحترام الذي كسبه نتيجة نجاحاته العسكرية التي حققها لصالح العثمانيين، هذا فضلا عن طبيعة النصائح التي كان يقدمها إلى رجال الدولة بخصوص العديد من الملفات المتعلقة بإسبانيا والبحر الأبيض المتوسط الغربي، كانت كلها عناصر حاسمة جدا في تبني رأي العلج علي باشا في الملف التونسي، وهذا ما جعل السلطان العثماني يدعوه لإسطنبول وتعيينه أميرالا للأسطول العثماني، والتي كانت تعتبر يومئذ السلطة العليا المشرفة على كل الشؤون الوزارة البحرية [36].

شارفت عملية إخضاع الدواخل التونسية من طرف حكام الجزائر تدريجيا تشكل لإسبانيا تهديدا كبيرا فهي ترصد عن قرب نهاية الهيمنة الإسبانية على المنطقة ككل، وعليه تقرر شن حملة ضد تونس بقيادة دون خوان دوريتش(Don Juan D'Autriche) ولقد كان متوقعا لهذه الحملة لأن السلطان العثماني قد راسل من قبل الإيالات المغاربية

33- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 02 مهمة دفتري10حكم 14صحيفة 12- 13تاريخ 2- 1- 979هـ- 1571م.

34- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 06 مهمة دفتري21 حكم540 صحيفة 226 تاريخ 21- 02- 980هـ

35- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 03 مهمة دفتري 12 حكم1037 صحيفة 541- 543 تاريخ 25- 10- 1571م الموافق ل 28 شوال979هـ.

36- عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص106.

وحذرهم من هذا القائد[37]، وبالرغم من هذا استطاع دون خوان من أن يحقق في تونس انتصارا سهلا، دون مقاومة تذكر وبدون أي خسارة، ليس فقط على تونس وضواحيها المباشرة، وإنما أيضا على بنزرت، أما حيدر باشا الذي كلف بإدارة تونس كبيلرباي لها بعد رمضان باشا منذ 15 محرم981هـ- 18ماي1573م فقد التجأ إلى القيروان، وكتب إلى الباب العالي مخبرا إياه بالوضعية الإدارية والعسكرية الجديدة والخطيرة ومدى ضرورة التدخل لإعادة احتواء تونس وحلق الوادي.[38].

في ظل هذه الظروف أرسل السلطان العثماني أمرا لبيلرباي الجزائر يأمره فيها بتهيئة الوضع سواء مع السكان المحليين أو حتى مع القيادات لأن موعد الفتح قد اقترب والتجهيزات قد استكملت، كما أمره بعدم التواني في إرسال القدر الكافي من العساكر، إما بقيادته شخصيا أو بقيادة أحد جنوده الأكفاء حسب الظروف[39]، وعلى هذا الأساس أرسلت السلطة العثمانية المركزية بإسطنبول لبيلرباي تونس جوابا على شكايتهم حول استيلاء الإسبان على تونس كليا وهذا الذي أثار استياء الأهالي، ورد عليهم بأنه تم إعداد 300 سفينة لأجل فتح حلق الوادي التونسية ولقد ألحق بتلك المراكب بعساكر على رأسها سنان باشا قائدا عليها، كما صدر أمر إلى القبودان وأمراء الولايات والعساكر الانكشارية بالتوجه إلى محاصرة تونس أو بنزرت، كما شدد على عدم التأخير أو الإهمال، مع مشاورة الأمراء عن اختيار المكان المناسب للهجوم إما بنزرت أو تونس حتى يصل الأسطول الهمايوني [40].

إن قراءتنا المتأنية للفرمانات التي بحوزتنا دلت على الإهتمام الكبير التي حظيت به إيالة تونس وسلامتها سواء من طرف السلطان العثماني أو حتى من بايلرباي الجزائر، ولا يهم الهدف الخفي وراء ذلك ولكن المهم كان الهدف الأسمى هو تحريرها من الإسبان نهائيا وفي أسرع وقت ممكن، كما أرسل السلطان العثماني في هاته الفترة رسالة إلى أمير كوكو يطلب المساعدة منه وتأمين ما يمكن من الذخيرة والالتحاق بالأسطول العثماني من أجل تحرير تونس. [41].

37- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 05 مهمة دفتري 16حكم40صحيفة24تاريخ جمادى الأولى 979هـ- 12نوفمبر 1571م.

38- عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص106.

39- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 06 مهمة دفتري 21 حكم 779صحيفة 331 تاريخ 981هـ.

40- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 06 مهمة دفتري 24حكم166صحيفة59 تاريخ 5ذي الحجة 981هـ- 28مارس 1574م.

41- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 06 مهمة دفتري 23 حكم 783صحيفة 349 تاريخ 18- 12- 981هـ.

غادر الأسطول العثماني في15ماي 1574م حاملا معه العدة والعتاد وحتى المواد الغذائية متوجها نحو حلق الوادي التونسية[42]، ولقد وصلت في الأيام الأخيرة من شهر جوان حيث قدمت من طرابلس أيضا قوات تتكون من أربعة (4) ألاف رجل كما جاءت من جربة والقيروان قوة تتكون من ستة (6) ألاف فارس وجاءت من قسنطينة ومن عنابة قوات تتكون من ألفين رجل، وانضمت إلى هذه القوات أعداد غفيرة من الأهالي حيث ضرب الجميع خيامهم بالقرب من مدينة تونس في 1جويلية، أما العلج علي فتكونت قواته من 280 قطعة بحرية بقيادته وساعده حسن باشا، ولقد أرسى الأسطول العثماني يوم 13جويلية بالقرب من رأس قرطاجة قبالة حلق الوادي، وأمر قائد الجيش البري بضرب الحصار على تونس تحت قيادة حيدر شيخ القيروان ودعمها أربعة (4) ألاف تركي من جنود الأسطول وثمانية (8) مدافع كبيرة وصغيرة، وفي يوم 17جويلية شرع في قصف حصن حلق الوادي من جهتين، وفي 10أوت 1574م وصل القائد رمضان إلى تونس مع خمسة (5) آلاف تركي من الجزائر وعدد كبير من الأهالي[43].

جهزت وقدمت الاستعدادات العثمانية الكبيرة من أجل استرداد تونس والتي لم يعلم بها الإسبان إلا بعد فوات الأوان، وعليه وفي وفي إطار جهود الحكام الأتراك وبمساعدة سليم الأول والعلج علي دمرت أحلام شارل الخامس نهائيا في 13سبتمبر 1574م وهذا بعد نجاح عملية التحرير وإلحاق تونس نهائيا بالدولة العثمانية[44]، وبسقوط الحصن سقطت الدولة الحفصية وانتهت مرحلة الإحتلال الاسباني على تونس، وأصبحت هذه الأخيرة إحدى إيالات الدولة العثمانية، وعين حيدر باشا واليا عليها وكلفه بوضع نظام مشابه للنظام العثماني السائد في الجزائر[45].

وهكذا أسدل الستار على إحدى الفضاءات المغاربية وتم إلحاقها رسميا بالدولة العثمانية بمبادرة جزائرية، وكإمتياز لما قدموه أسندت لهذه الأخيرة بأن تسير إيالة تونس نيابة عنها.

الخاتمة:

نستنتج في الأخير مجموعة من النقاط سطرت في الآتي:

42- Defontin Maxange, op.cit, p157.

43- صالح عباد، المرجع السابق، ص 96 .

44- M. Alfred Nettement, Histoire de la conquête d'Alger, Libraire jacques Le coffre, p51.

45- ابن أبي الدينار، المصدر السابق، ص 189.

- إن الصراع السلطوي داخل البلاط الحفصي نتج عنه توترا كبيرا مما فتح لهم باب التحالفات مع أطراف خارجية من أجل الأخذ بالحكم وهذا بعد أن تخوفت أيضا من الوجود العثماني في الجزائر وهذا خوفا من تغلغل هذا العنصر بها

- أظهرت لنا الوثائق الارشيفية أن الباب العالي قد أولى عناية كبيرة بمسألة تونس ومشكلة تحريرها من الإسبان خاصة بعد طلب أعيانها ضرورة تحريرها في أقرب وقت، ولهذا سارع الباب العالي في تكثيف اتصالاته مع بايلربايات الجزائر من أجل أخذ زمام المبادرة والإسراع في تحريرها هذا من جهة ومن جهة أخرى لتأمين الحدود الشرقية للإيالة للجزائرية.

- أثبت خير الدين باشا وقواته العسكرية أن تحرير تونس ليس بالأمر الهين فهو أمام قوة لا يستهان بها، فنراه ينتصر مرة وينهزم مرة اخرى خاصة بعدما أصبح الأمر في تونس يزدادا حدة وتوترا، ولهذا عجل العلج علي بعد تقليده الحكم في الجزائر عام1568م مستغلا بذلك الأوضاع المتردية في تونس هذا من جهة ودعوة رجال وأعيان تونس من جهة اخرى، حيث شرع في تجهيز العدة والعتاد من أجل تحرير تونس من الهيمنة الإسبانية.

- كثفت الرسائل بين الباب العالي والعلج علي من أجل إعطاءه التعليمات اللازمة والتوجيهات الضرورية ليكون تحرير المنطقة يسيرا، وما عجل ذلك هو كفاءة وحنكة العلج علي البحرية فلا يخفى عليكم أن له خبرة عالية في البحر منذ الصغر.

- أشرك العلج علي كل قواته وحتى القبائل منها كقبيلة كوكو في عمليات التحرير التي تواصلت منذ توليه الحكم، فنراه يسترد الدواخل التونسية ويضمها إلى الفضاء العثماني وتتبع إداريا إلى إيالة الجزائر إلى أن تم نهائيا بضم حلق الوادي آخر المناطق التي كانت تحت هيمنة الإسبان في 13 سبتمبر 1574م.

- إن النتيجة الملموسة لتعليمات الباب العالي انتهت بتحرير تونس نهائيا وضمها إلى الفضاء العثماني، وكإمتياز لما صنعته الجزائر وحاكمها آنذاك العلج علي الذي سير عملية تحرير تونس بكل حنكة وكفاءة مستغلا بذلك خبرته داخل البحار كوفئت الجزائر بأن تسير المنطقة نيابة عنها.

قائمة المصادر المراجع:

- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 05 مهمة دفتري 10 حكم10صحيفة1 تاريخ 02- 01- 979هـ .

- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 03 مهمة دفتري 12 حكم1037 صحيفة 541- 543 تاريخ 25- 10- 1571م الموافق ل 28 شوال979هـ.

- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 03 مهمة دفتري 12حكم518صحيفة249 تاريخ979هـ.
- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 05 مهمة دفتري 16حكم40صحيفة24تاريخ جمادى الأولى 979هـ- 12نوفمبر 1571م.
- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم06 مهمة دفتري 21 حكم 779صحيفة 331 تاريخ 981هـ.
- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 06 مهمة دفتري 23 حكم 783صحيفة 349 تاريخ 18- 12- 981هـ.
- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 06 مهمة دفتري 24حكم166صحيفة59 تاريخ 5ذي الحجة 981هـ- 28مارس 1574م.
- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 02 مهمة دفتري10حكم 14صحيفة 12- 13تاريخ 2- 1- 979هـ- 1571م.
- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 05 مهمة دفتري14 حكم 1597صحيفة 1087 تاريخ 18- 01- 979هـ.
- الأرشيف الوطني الجزائري. علبة رقم 06 مهمة دفتري21 حكم540 صحيفة 226 تاريخ 21- 02- 980هـ.
- أمجان فريدون، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، تر: جمال فاروق، أحمد كمال، ط2، دار النيل للطباعة والنشر، 2015
- ألتر عزيز سامح ، الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، بيروت: دار النهضة المغربية للطباعة والنشر ، ط1، 1989.
- التميمي عبد الجليل ، دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن السادس عشر، تونس: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 2009.
- القيرواني ابن أبي الدينار الرعيني ، المؤنس في تاريخ افريقيا وتونس، تونس: مطبعة دولة تونس، تونس، ط1، 1869.
- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و اسبانيا 1492م- 1792م، دار البعث، د.س.
- بن خروف عمار، العلاقات بين الجزائر والمغرب 923هـ- 1069هـ - 1518م- 1659م، رسالة ماجستير في التاريخ، دمشق: قسم التاريخ، جامعة دمشق، 1983.
- شاشية حسام الدين، "مراجعة كتاب تونس 1535م أصوات من حملة أوربية"، تونس، الكراسات التونسية، ع 218 -219، 201، ص ص 91-98.

- شافعي درويش، الحملة الاسبانية على تونس سنة 1535م، مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية، ع30، سبتمبر2017، ص ص 1-12.
- صابان سهيل ، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات الملك الفهد الوطنية، الرياض، د.س.
- عامر محمود، "المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية"، دمشق: مجلة دراسات تاريخية، ع117- 118، 2012، ص ص 375-381.
- عباد صالح ، الجزائر خلال الحكم التركي 1514م - 1830م، ط2، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.س.
- عباس تركي:" إضاءات حول شخصية بيلرباي الجزائر قليج علي 1568-1587"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، الجزائر، مج02، ع04 ، جويلية2020. ص ص 107-125.
- هنية عبد الحميد، تونس العثمانية بناء الدولة والمجال، منشورات أوتار تبر زمان، تونس، 2016.

المراجع الأجنبية:

- De Haedo Fray Diego, Histoire des rois d'Alger, trad. : h- d . de Grammont, libraire éditeur, Alger, 1881.
- De LA Primoudaie Elie, Documents inédits sur l'histoire De l'occupation Espagnole en Afrique (1506- 1574), R.A, N° 19, Alger, 1875,337-360.
- Mager Henri, Atlas D'Algérie et Tunisie, Ernest Flammarion Editeur, 1901.
- Maxange Defontin, Alger avant La conquête - Eulg Ali-, A.Pedone Editeur, Paris, 1930.
- Nettement M. Alfred, Histoire de la conquête d'Alger, Libraire jacques Le coffre.
- Piesse Louis, Itinéraire de L'Algérie de la Tunisie et de Tanger, Librairie Hachette, Paris, 1882.